أعتزم الإجهازَ على أسطورة أخرى وهو الزعم بأن «روح الإسلام...» مدينة «للإبداع الهيليني» حسب كلمات فون غرونباوم في المقتبس الثاني أعلاه. وفي هذه الأثناء سوف يتضح أنّني، بصفتي اختصاصياً في فقه اللغة، أُماهي بين شخصية أوديس/السندباد من جهة والبحار من الجهة المقابلة. وأنا واثق من أنّ الحكايات العجيبة التي سأوردها سوف تكون مسليةً على الأقل، حتى ولو بقي منهجي عاجزاً عن الإقناع.

في قصيدة يلفها شيء من الغموض بالنسبة الى أصالتها غير المؤكدة، يقدّم لنا الشاعرُ الجاهليُّ الصعلوكُ ثابت بن جابر الفهمي المشهور بـ «تأبّط شراً»، الإشارةَ العربيةَ الأولى إلى الموضوع القصصي الشعبي المتمثل بالمخاطر الكامنة في طعن الغول ـ الذي يجسد هنا عفريتاً من عفاريت الصحراء العربية ـ بالسيف[1]. وهذا المخلوق الذي يتصارع معه الشاعر أنثى، كما أنّ القصيدة تنطوي على جملة من الإيحاءات الجنسية الواضحة:

١ ـ أَلا مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ ... بِمَا لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَى بِطَانِ
٢ ـ بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي ... بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
٣ ـ فَقُلْتُ لَهَا: كِلانا نِضْوُ أَينٍ ... أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لي مَكَانِي
٤ ـ فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى ... لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي
٥ ـ فَأَضْرِبُهَا بِلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ
٦ ـ فَقَالَتْ: عُدْ فَقُلْتُ لَهَا: رُوَيْداً ... مَكَانَكِ، إِنَّني ثَبْتُ الجَنَانِ
٧ ـ فَلَمْ أَنْفَكَّ مُتَّكِئاً عَلَيْهَا ... لأَنْظُرَ مُصْبِحاً مَاذا أَتَانِي
٨ ـ إِذَا عَيْنَانِ في رَأْسٍ قَبِيحٍ ... كَرَأْسِ الهِرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
٩ ـ وسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةُ كَلْبٍ ... وَثَوْبٌ مِنْ عَبَاءٍ أَو شِنَانِ[2]

وفي الفصل التاسع من ملحمة **الأوديسة** لهوميروس، يفكّر اوديس بعد الوقوع بين براثن السيكلوب «فوليم» الذي التهم اثنين من رفاقه، بتجريد سيفه لذبح الوحش النائم؛ يقول أوديس في الملحمة[3]: «ورأى الباقون منا هذا العمل الفظيع فلم يقدروا إلاّ على البكاء والتماس العون من زفس. ولما ملأ الجبار كرشه من اللحم الآدمي ومن لبن القطعان، تمدّد بين غنمه ونام. فتردّدتُ عند ذلك الأسئلةُ في صدري، وجعلتُ أُسائل نفسي، هل أقوم فأقتل هذا المخلوق المخيف وهو نائم، فقد كنت على ثقة من جودة سيفي وقدرته على النفاذ إلى قلب هذا العملاق، مهما كان مبلغ جبروته. ولكنّ فكرة ثانية صدّتني عن ذلك، فذكرتُ أنّني لو قتلته لهلكتُ ورفاقي شرّ هلاكٍ. فمن ذا يقدر أن يزحزح هذا الصخر العظيم القائم عند باب الكهف».

إنّ هذه الحادثة، كما يرويها هوميروس، مشحونة بالدراما والإثارة. إذ يجري تقديم أوديس إلى الجمهور بطلاً ورجلاً عملياً، يتمثّل ردُّ فعله الغاضب الأول باستخدام العنف، دون إعمال الفكر والعقل، انتقاماً لرفاقه الذين شهد لتوه ميتَتَهُم الفظيعة. صحيح أن أوديس يستطيع أن يثأر وأن ينقذ الباقين من رفاقه بضربة واحدة[4]، غير أن هذا البطل الهوميري العمليَ [البراغماتي] على الدوام لا يلبث أن يتذكّر الحجر الضخم الذي يسد مدخل الكهف.

ويبرز العنصر الدرامي أيضاً حين نتوغل في آليات تفكير أوديس، وهو أحد «الأبطال الحقيقيين لحرب طروادة» (هوبيك وهويكسترا، ١٩٩٠: ٣٠) من ناحية، إضافة إلى كونه رجل دهاء واسع الحيلة في الوقت نفسه. وإذ تتواصل أحداث السرد، تتزايد عواملُ الإثارة والعناصر الدرامية. فأدويس وصحبه يعانون حالة من اليأس الشديد، وهم عاكفون على إرسال آهات الحسرة والندامة، وغارقون في نوع من الذهول أو الخبل الذهني[5] ناجم عن العجز والخوف؛ وهو ما كان الشاعر الجاهلي الصعلوك تأبط شراً يحتقره ويترفع عنه. يستيقظ المارد من نومه، ويستمتع بوجبة إفطاره المؤلفة من رجلين آخرين من أصحاب أوديس، ثم يسوق قطعانه إلى التلال.

يصمّم أوديس على التحرُّك والعمل بعد أن شهد، وللمرة الثانية، هذا المشهد المرعب. وتنعم عليه أثينا بأفضل الخطط فتسمل عين المارد آكلِ لحوم البشر. ويبيّن فويغت (Voigt) في «المحاكمة واتخاذ القرار» (مايزنهايم ١٩٧٢، ص ٢٧ ـ ٢٨) كما يلاحظ كلٌّ مِنْ هوبيك وهويكسترا (١٩٩٠: ٣٠)، «أنّ الفارق الرئيسي بين هذا الحدث و 'مشاهد التأمل' العديدة في **الإلياذة** هو توزيع الحدث على مرحلتين (بين

---

١ ـ انظر د. ب. ماكدونالد(شارل بيلاّ): مادة «الغول» في **الموسوعة الإسلامية**.

٢ ـ **ديوان تابّط شرّاً وأخباره**، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٧.

٣ ـ **الأوديسة**: ترجمة عنبرة سالم الخالدي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

٤ ـ أ. هوبيك وأ. هويكسترا (A. Heubeck and A. Hoekstra) في **تعليق على اوديسة هوميروس**، (أوكسفورد ١٩٨٩، ص: ٣٠) يقارنان اندفاع أوديس العنيف برد فعل آخيل على إهانة أغاممنون في الأبيات ١٨٩ ـ ٢٠٠ من الفصل الأول في ملحمة **الألياذة**، كما في أماكن أخرى.

٥ ـ «إن الاتيان على ذكر اليأس من امتلاك أي سلاح ضد فوليم يؤدي، في الحقيقة، إلى تهيئة القارئ لتوقُّع حيلةٍ ما (البيت ٢٩٩ وما بعده) من جانب أوديس المعروف بأنه واسع الحيلة (هوبيك وهويكسترا ١٩٩٠: ٢٩). ليست المسألة، بطبيعة الحال، إلا مسألة: ما هي الحيلة التي يتعين على الجمهور أن ينتظرها؟ قارنْ بملاحظات پ. جونز (**الأوديسة الهوميريّة**: بريستول ١٩٨٨: ٨٦) حيث يقول: «تتميز حكاية السيكلوب كلها بعدد المرات [...] التي يضطر فيها أوديس الى كبت غريزة الإقدام على اعتماد حل إلياذي معين للمشكلة (أي الإقدام على قتل فوليم) لأن من شأن ذلك في الحقيقة ألا يحلها».

الأبيات من ١٩٩ الى ٣٠٥ [كذا] والأبيات من ٣١٦ الى ٣١٨)». وما كان تحقيق ذلك، في المقام الأول، على ما يبدو، إلا من أجل رفع مستوى التوتر والترقب[١]، كما يتيح لهوميروس أيضاً فرصة استفزاز جمهوره ـ بدفعه إلى طرح تساؤل: هل سيقوم أوديس، وهو «المتميّز بالدهاء والمكر اللذين طالما... كانا سبباً في نجاته» (شاين، ١٩٧٠: ٧٧)، باجتراح خطة قابلة للتنفيذ قبل وقوع حوادث وفاة جديدة؟ هل سيموت المارد الآن أم لاحقاً؟ ـ ويتيح له أخيراً الوقوفَ على التناقض الصارخ بين مشهد استعداد الوحش للخروج إلى العمل من جهة، ومشهد وجبته الصباحية الدسمة التي لا توصف إلا بصورة مبتسرة في البيت ٣١١، حيث يلاحظ المرءُ غيابَ أيِّ تصوير لمدى بشاعة هذه الفعلة من جهة ثانية[٢]. ويتيح الموقفُ أيضاً لهوميروس فرصةَ إبراز سهولة تحريك المارد للصخرة، التي تشكل العقبة الكأداء أمام أوديس ورجاله. وفي الأبيات ٣٧١ ـ ٣٧٣ ثمة مثال أوضح على إثارة ترقب الجمهور: فالسيكلوب يغط في النوم العميق ممدداً «على ظهره». فكيف سيتمكن أوديس ورجاله من سمل عينه وهو ضخم كالجبل؟ هل سيتعين على أوديس أن يجترح حيلة أخرى تمكّنه من الوصول إلى عين المارد؟ لا: فالمارد، لحسن الحظ، يلوي عنقه الغليظ جاعلاً الهدفَ في متناول أوديس وصحبه[٣].

يتمكن الشاعر الملحمي من جعل أحد ردود الفعل البطولية المألوفة متناغماً مع حكايته بطريقة مقنعة جداً وناجحة على الصعيد الدرامي، (إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ آخيل وفونين ـ كليهما ـ يقفان أيضاً مكتوفي الأيدي في نوبة الغضب في المقاطع التي تسبق مشاهد فوليم في **الأوديسة**). ففي حميّا الإثارة اللاحقة التي نتجت عن سَمْل عين المارد يبدو وكأنّ السيف قد نُسي. ولكن هل نسيَ الجمهورُ السيف، أم غفل عنه؟[٤]

تشكل «حكاية السيف»، إذن، مفصلاً حاسماً في مسار تطور القصة: إنها عملية انتقال «زائفة» لأن تبعات التحرك الفطري لعملية العنف تعقّلَنُ وتُرفض من ثمّ. فحين يقوم أوديس في البيت ٣٠٠ بوصف تجريده لسيفه، فليس ثمة إلا احتمال ضعيف بعدم استخدامه إياه لقتل المارد، بل لسمل عينه (كما يفعل قاتلُ التنين جاك الذي هو البطلُ الإنجليزي في قصة ج.غ. فريزر الثامنة عشرةَ إذ «كان التنين نائماً بعد وجبة العشاء في المطحنة وبجانبه رغيفٌ هائلٌ من الخبز المصنوع من العظام، وفي يده خنجر، فاستل جاك الخنجر من قبضة النائم وغَرَزَهُ في عينه الوحيدة»)[٥]. غير أن الراوي يرفض هذه الفكرة: فجريمة فوليم الشنيعة لا يمكن معاقبتها عقاباً ملائماً، في البداية، إلا بالإعدام، وإنْ كانت هذه الخطة تتعرض، بالطبع، لإعادة النظر لاحقاً.

لن يقتنع المطلّعون على الدراسات الدائرة حول عناصر القصص الشعبية الموجودة في ملحمة **الأوديسة** بتفسير «سياقي» مجرَّدٍ لـ «حكاية السيف»، وقد يخطر لهم وجودُ رواية معدّلة أو روايات بديلة للحكاية الشعبية (الدائرة حول المجابهة بين بطلٍ وغولٍ يأكل البشر) أو لقصة أوديس وفوليم التي كان الشاعر، وربما جمهورُه أيضاً، مطّلعين عليها. وفي الحقيقة ثمة روايات كثيرة لقصة المجابهة بين البطل وأحد الغيلان الآكلة لحوم البشر، وتتمحور فعلاً حول «حكايةِ سيفٍ» مماثلة، وهي موجودة في عدد من النصوص العربية والتركية العائدة الى العصر الوسيط. وإذا أردنا أن نقوّم العلاقات القائمة بين تلك النصوص من جهة وسيكلوبيا هوميروس من الجهة المقابلة تقويماً صحيحاً، فإنّ علينا أن نستعرض بعضاً من الغيلان الآكلة لحوم البشر التي نقع عليها في مؤلفات قصصية تنتمي الى الشرقَيْن الأدنى والأوسط.

لقد قام جان أنطوان غالان (Galland، ١٦٤٦ ـ ١٧١٥) بترجمة رحلات السندباد البحري السبع قبل أن يعرف شيئاً عن المجموعة الأوسع التي لم تكن هذه الرحلاتُ إلا جزءاً

---

١ ـ يقول غلين (١٩٧١: ١٥٩): «على النقيض من الحكايات الشعبية، إذن، يبرع هوميروس في إثارة الكثير من التوتر لدى تقديمه لمأزق أوديس».

٢ ـ كما تكرر «التناقضَ بين بدائية فوليم ومهارة أوديس التقنية» (شاين، ١٩٧٠: ٧٧) وتتوقع حادثة سمل العين حيث يوصف «نشاط أوديس عبر تقديم صور فنون الحضارة مثل التعامل مع المعادن وبناء السفن» (شاين، ١٩٧٠: ٧٧). ويلاحظ بوركيرت (W. Burkert) أنّ الرمح ذا الأهمية البالغة بالنسبة للإنسان البدائي الذي يحترف الصيد يحل محل السيف كوسيلةٍ تمكّن أوديس من الانتصار على آكل لحوم البشر: «في قلب حكاية السيكلوب نقع على وصف اختراع أول الأسلحة جنباً الى جنب مع استخدام النار. ثمة روايات أخرى جاءت لتُدخل النقلة التكنولوجية الكبرى التالية الى النص: التعدين؛ فالغول يصاب بالعمى نتيجة صب المعدن المذاب في عينه، وهذه موضوعة موجودة في نص **الأوديسة** نفسه تحت ستار أحد التشبيهات» (**البنية والتاريخ في الميثولوجيا والطقوس الإغريقية**، بيركلي ١٩٧٩، ص: ٣٤).

٣ ـ انظر د. پيج (D. Page): **الأوديسة الهوميريّة**، أوكسفورد ١٩٥٥، ص: ١١.

٤ ـ في روايتين أخريين يستخدم البطل سكيناً لسمل عين العملاق. وفي روايتين أخريين يستخدم سيفاً. يهمل هوميروس السيف كسلاح تماماً مثلما يفضل العصا على السيخ (انظر غلين ١٩٧١: ١٦٥).

٥ ـ ج. فريزر **أپولودوروس** (Appolodoros)، المكتبة، لندن ١٩٢١: ٤٣٠ ـ ٤٣١. إلى هذه النقطة تكون الرواية الهوميرية منسجمة مع الحكاية الشعبية المألوفة، حيث يغط العملاق في نوم عميق، بعد أن أشبع نهمه من اللحم البشري، تماماً كما يفعل فوليم.

منها، أي مجموعةِ **ألف ليلة وليلة**، وكتب عن انشغاله بالسندباد قائلاً «لديّ أيضاً ترجمة موجزة للقصص، عن العربية... ثمة اثنتان منها أُخذتا، على ما يبدو، من هوميروس. والحقّ أنّ أسطورة سيرسه (Circé) موجودة في إحدى القصتين، كما أنّ أسطورة فوليم موجودة في الثانية» (نقلاً عن كازانوفا، ١٩٢٢: ١٢٦)[١]. ولم يشكك إلاّ عدد قليل من المستشرقين بمدى دقة القول بأنّ مجابهة الغول الآكلِ لحوم البشر كما هي واردة في «رحلة السندباد الثالثة» مأخوذةٌ من ملحمة **الأوديسة** لهوميروس. وبالفعل فإنّ التشابه الظاهر كان قوياً الى حد دَفَع غوستاف فون غرونباوم، وهو الحامل الأبلغ والأكثر ثباتاً للواء هذه الفرضية، إلى القول بأنّ مثل هذه «الموضوعات، أيّاً كانت منطقةُ نشوئها، لم تأخذ شكلها الأدبي إلا باللغة اليونانية، ثم التقطها الرواةُ الشرقيون وقاموا بتطويرها انطلاقاً من القالب الذي صبَّها المؤلّفُ الكلاسيكيُّ فيه» (١٩٥٣: ٢٩٨). وهكذا يوحي فون غرونباوم بأن وسيلة النقل هي الترجمة السريانية، غير الكاملة ربما، التي أنجزها تيوفيل الرهاوي (Theophilus of Edessa) (المتوفّى ٧٨٥ م) لـ «كتابي هوميروس» (١٩٥٣: ٣٠٣).

«فرحلة السندباد الثالثة»[٢] تبدأ بمغامرة خطرة في «جبل القرود» وتنتهي بمواجهة أخرى خطرة مع «ثعبان عظيم الخلقة كبير الجثة واسع الجوف قد أحاط بنا وقصد واحداً منا فبلعه...». وبين المغامرة والحدث يجابه البحّارُ المقدامُ مارداً من أكلة لحوم البشر:

«فبينما نحن في تلك الجزيرة نأكل من ثمارها ويُقُولها وفواكهها ونشرب من الأنهار التي فيها إذ لاح لنا بيتٌ عامر في وسط تلك الجزيرة فقصدناه [...]، فدخلنا باب ذلك القصر فوجدنا له حضيراً واسعاً مثل الحوش الواسع الكبير[...] وإذا بالأرض قد ارتجت من تحتنا وسمعنا دوياً من الجو وقد نزل علينا من أعلى القصر شخصٌ عظيم الخلقة في صفة إنسان وهو أسود اللون طويل القامة كأنه نخلة عظيمة، وله عينان كأنّهما شعلتان من نار، وله أنياب الخنازير، وفم عظيم الخلقة مثل فم البئر، ومشافر مثل مشافر الجمل مرخية على صدره، وأذنان مثل الجرمين مرخيّتان على أكتافه، وأظافر يديه مثل مخالب السبع. فلما نظرناه على هذه الحالة غبنا عن وجودنا وقوي خوفنا واشتد فزعنا وصرنا مثل الموتى من شدة الخوف والجزع والفزع[...].

... فلما نزل على الأرض جلس قليلاً على المصطبة. ثم إنه قام وجاء عندنا ثم أنّه قبض على يدي من بين أصحابي التجار. ورفعني بيده على الأرض وجسّني وقلبني فصرتُ في يده مثل اللقمة الصغيرة، وصار يجسّني مثل ما يجس الجزّارُ ذبيحةَ الغنم فوجدني ضعيفاً من كثرة القهر هزيلاً من كثرة التعب والسفر وليس فيّ شيء من اللحم، فأطلقني من يده وأخذ واحداً غيري من رفقتي وقلبه كما قلبني وجسه كما جسني وأطلقه. ولم يزل يقلبنا واحداً بعد واحد إلى أن وصل الى رئيس المركب التي كنا فيها، وكان رجلاً سميناً غليظاً عريض الأكتاف صاحب قوة وشدة. فأعجبه، وقبض عليه مثل ما يقبض الجزّارُ على ذبيحته ورماه على الأرض ووضع رجله على رقبته فقصف رقبته، وجاء بسيخ طويل فأدخله في حلقه حتى أخرجه من دبره وأوقد ناراً شديدة وركّب عليها ذلك السيخ الذي مشكوكٌ فيه الرئيس. ولم يزل يقلبه على الجمر حتى استوى لحمه وأطلعه من النار وحطّهُ قدّامَه وفسخه كما يفسخ الرجلُ الفرخةَ، وصار يقطع لحمَه بأظافره ويأكل منه. ولم يزل على هذه الحالة حتى أكل لحمه ونهش عظمه ولم يُبقِ منه شيئاً، ورمى باقي العظام في جنب القصر. ثم إنه جلس قليلاً وانطرح ونام على تلك المصطبة وصار يشخر مثل شخير الخراف والبهيمة المذبوحة، ولم يزل نائماً حتى الصبح، ثم قام وخرج الى حال سبيله.

فلما تحققنا بُعْدَهُ تحدثنا مع بعضنا وبكينا على أرواحنا[...]. ثم إنّنا قمنا وخرجنا الى الجزيرة لننظر لنا مكاناً نختفي فيه أو نهرب[...] فلم نجد لنا مكاناً نختفي فيه وقد أدركنا المساء فعدنا الى القصر من شدة خوفنا وجلسنا قليلاً وإذا بالأرض قد ارتجّتْ من تحتنا وأقبل علينا الشخص الأسود وجاء عندنا وصار يقلبنا واحداً بعد واحد مثل المرة الأولى[...] فاجتمعنا ببعضنا وتحدثنا[...]. فقلت لهم: 'اسمعوا يا إخواني إنْ كان لا بد من قتله فإنّنا نحول هذا الخشب وننقل شيئاً من هذا الحطب ونعمل لنا فلكاً مثل المركب وبعد ذلك نحتال في قتله وننزل في الفلك ونروح في البحر الى أيّ محل يريده الله أو نقعد في هذا المكان حتى تمر علينا مركب فننزل فيها. وإن لم نقدر على قتله ننزل ونروح في البحر ولو كنا نغرق فنرتاح من شيّنا على النار ومن الذبح، وإن سَلِمنا وإن غرقنا متنا شهداء' فقالوا جميعاً: 'واللّه هذا رأي سديد وفعل رشيد' واتفقنا على هذا الأمر وشرعنا في فعله[...]

فلما كان وقت المساء إذا بالأرض قد ارتجت بنا ودخل الأَسْودُ وهو كأنّه الكلب المعقور ثم قَلبنا وجسّنا واحداً بعد واحد. فأخذ واحداً منا وفعل به مثل ما فعل بسابقيه وأكله ونام على المصطبة وصار شخيره مثل الرعد. فنهضنا وقمنا وأخذنا سيخين من حديد من الأسياخ المنصوبة ووضعناهما في النار القوية حتى احمرّا وصارا مثل الجمر. وقبضنا عليهما قبضاً شديداً وجئنا بهما إلى ذلك الأَسْود وهو نائم يشخر ووضعناهما في عينيه واتكأنا عليهما جميعاً بقوتنا وعَزْمنا فأدخلناهما في عينيه وهو نائم، فانطمستا، وصاح صيحة عظيمة، فارتعبتْ قلوبنا منه. ثم قام من فوق تلك المصطبة بعزمه وصار يفتش علينا ونحن نهرب منه يميناً وشمالاً[...] فلما خرج من القصر تبعناه وراح الى حال سبيله وهو يدور علينا. ثم إنه رجع ومعه أنثى أكبر منه وأوحش خلقةً. فلما رأيناه والتي معه أفظع منه حالةً خفنا غاية الخوف فلما رأونا أسرعنا ونهضنا؛ فككنا الفلك الذي صنعناه ونزلنا فيه ودفعناه في البحر ومع كل واحد منهم صخرة عظيمة وصاروا

---

١ ـ ب. كازانوفا (P. Casanova): «ملاحظات حول سندباد البحر» في **نشرة المعهد الفرنسي لدراسة الآثار المشرقية**: ٢٠ ـ ٢١ (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) ص: ١١٣ ـ ١٩٨. أما نظيرة سيرسه (Circé) فهي الملكة لاب (Lab)، الساحرة التي تقلب عشاقها إلى طيور عن طريق عقار مسحور، كما يقول غالان (Galland). والملكة لاب هذه نصادفها في حكاية جلنار. «وابنة البحر جلنار هذه بالذات ربما كانت مدينة بشيء ما للإلهة تيتيس، إلهة البحر وأم أخيل» (ايرون، ١٩٩٤: ٧١).

٢ ـ النص الذي اعتمدته هو: **ألف ليلة وليلة**، تحقيق أ. صالحاني و ر. البخاري، بيروت ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨.